عُمَيْرُ بن سَعْد
نَسِيجُ وَحْدِهِ!!

أتذكرون «سعيد بن عامر»..؟؟

ذلك الزاهد العابد الأوَّاب الذى حمله أمير المؤمنين «عمر» على قبول إمارة الشام وولايتها.

لقد تحدثنا عنه فى كتابنا هذا، ورأينا من زهده ومن ترفُّعه، ومن وَرعه العجبَ كله..

وها نحن أولاء، نلتقى على هذه الصفحات بأخ له، بل تَوْءَم، فى الورع، وفى الزهد، وفى الترفُّع.. وفى عظمة النفس التى تجل عن النظير..!!

«إنه عمير بن سعد»..

كان المسلمون يلقبونه.. «نسيج وحده»!!

وناهيك برجل يجمع على تلقيبه بهذا اللقب أصحاب رسول الله، بما معهم من فضل، وفَهم، ونور..!!

* * *

أبوه «سعد» القارئ رضي الله عنه.. شهد بدرًا مع رسول الله، والمشاهد بعدها.. وظلَّ أمينًا على العهد حتى لقى الله شهيدًا فى موقعة القادسية[1].

ولقد اصطحب ابنه إلى الرسول، فبايع النبى وأسلم..

ومنذ أسلم «عمير» وهو عابد مقيم فى محراب الله.

يهرب من الأضواء، ويفيء إلى سكينة الظلال.

هيهات أن تعثر عليه فى الصفوف الأولى. إلا أن تكون صلاة، فهو يُرابط فى صفها الأول ليأخذ ثواب السابقين.. وإلا أن يكون جهاد، فهو يهرول إلى الصفوف الأولى، راجيًا أن يكون من المستشهَدين..!

---

(١) فى سيرة ابن هشام: تفيد القصة الواردة على الصفحة ٥١٩ من المجلد الأول طبعة الحلبى الثانية، أن أبا عمير هو «سعد» آخر، وأنه مات والرسول حى قبل غزوة تبوك، ولكن ابن سعد فى الطبقات الكبرى جـ٤ ص ٣٢٤، طبعة بيروت يذهب إلى أنه «سعد القارئ» وقد اخترنا هذا الرأى.

وفيما عدا هذا، فهو هناك عاكف على نفسه يُنمِّى بِرَّها، وخيرها وصلاحها، وتُقَاها..!!

أوّاب، يبكى ذنبه..!!

مُتبتّل، ينشد أوْبَه..!!

مُسافر إلى الله فى كل ظَعْن، وفى كل مُقام..

* * *

ولقد جعل الله له فى قلوب الأصحاب وُدًّا، فكان قُرَّة أعينهم ومَهوى أفئدتهم..

ذلك أن قوة إيمانه، وصفاء نفسه، وهدوء سَمْته، وعبير خِصاله، وإشراق طلعته - كان يجعله فَرْحة وبهجة لكل من يجالسه، أو يراه.

ولم يكن يؤثِرُ على دينه أحدًا، ولا شيئًا.

سمع يومًا «جُلاس بن سويد بن الصامت»، وكان قريبًا له .. سمعه يومًا وهو فى دارهم يقول: «لئن كان الرجل صادقًا، لنَحن شرٌّ من الْحُمُر»..!!

وكان يعنى بالرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان «جُلاس» من الذين دخلوا الإسلام رَهَبًا.

سمع «عمير بن سعد» هذه العبارة ففجرت فى نفسه الوديعة الهادئة الغيظ والحيرة..

الغيظ، لأن واحدًا يزعم أنه من المسلمين يتناول الرسول بهذه اللهجة الرديئة..

والحيرة، لأن خواطره دارت سريعًا على مسئوليته تجاه هذا الذى سمع، وأنكر..

أينقل ما سمع إلى رسول الله؟؟

كيف، والمجالس بالأمانة..؟

أيسكت ويطوى صدره على ما سمع..؟

كيف..؟؟

وأين وفاؤه وولاؤه للرسول الذى هداهم الله به من ضلالة، وأخرجهم من ظلمة..؟

لكن حيرته لم تَطل، فصدق النفس يجد دائمًا لصاحبه مَخْرجًا.

وعلى الفور تصرف «عمير» كرجل قوى، وكمؤمن تقى..

فوجه حديثه إلى «جُلاس بن سُوَيد»..

«والله يا جُلاس، إنك لمن أحبِّ الناس إلىَّ، وأحسنهم عندى يدًا، وأعَزهم علىَّ أن يُصيَبه شىء يكرهه..

«ولقد قلتَ الآن مقالة، لو أذَعْتها عنك لآذتك.. ولو صَمَتُّ عليها، ليهلكنَّ دينى، وإن حق الدين لأولى بالوفاء، وإنى مُبْلِغ رسول الله ما قلت»..!

وأرضى «عمير» ضميره الورع تمامًا..

فهو - أولا - أدى لأمانة المجلس حقها، وارتفع بنفسه الكبيرة عن أن يقوم بدور المتسمع الواشى..

وهو - ثانيًا - أدى لدينه حقه، فكشف عن نفاق مريب.

وهو - ثالثًا - أعطى «جُلاسًا» فرصة الرجوع عن خطئه واستغفار الله منه حين صارحه بأنه سيبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو أنه فعل آنئذ ، لاستراح ضمير «عمير» ولم تعد به حاجة لإبلاغ الرسول عليه السلام...

بيد أن «جُلاسًا» أخذته العزة بالإثم، ولم تتحرك شفتاه بكلمة أسف أو اعتذار، وغادرهم «عمير» وهو يقول:

«لأبلغنَّ رسول الله قبل أن ينزل وحى يُشْرِكنى فى إثمك»..

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب «جلاس» فأنكر أنه قال، بل حلف بالله كاذبا..!!

لكن آية القرآن جاءت تفصل بين الحق والباطل:

﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهَمُّوا بما لم ينالوا وما نَقَمُوا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يَكُ خيرًا لهم، وإن يتولَّوْا يعذبهم الله عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير﴾

واضطر «جلاس» أن يعترف بمقاله، وأن يعتذر عن خطيئته، لاسيما حين رأى الآية الكريمة التى تقرر إدانَته، تَعِدُه فى نفس اللحظة برحمة الله إن هو تاب وأقلع:

﴿فإن يتوبوا، يَكُ خيرًا لهم﴾..

وكان تصرف «عمير» هذا خيرًا وبركة على «جُلاس» فقد تابَ وحَسُن إسلامه...

وأخذ النبى بأُذُن عمير وقال له وهو يغمره بسناه:

«يا غلام...
وَفَتْ أُذُنُك..

وصَدَّقك رَبُّك»!!

* * *

لقد سَعِدْتُ بلقاء «عمير» لأول مرة، وأنا أكتب كتابى «بين يدى عمر».

ويهرنى، كما لم يبهرنى شىء، نبأه مع أمير المؤمنين... هذا النبأ الذى سأرويه الآن لكم، لتشهدوا من خلاله العظمة فى أبهى مشارقها.

* * *

تعلمون أن أمير المؤمنين «عمر» رضى الله عنه كان يختار وُلاتَهُ وكأنه يختار قدَرَه..!!

كان يختارهم من الزاهدين الوَرِعين، والأمناء الصادقين.. الذين يهربون من الإمارة والولاية، ولا يقبلونها إلا حين يُكْرههم عليها أمير المؤمنين..

وكان برغم بصيرته النافذة، وخبرته المحيطة، يستأنى طويلا، ويدقق كثيرًا فى اختيار وُلاته ومُعاونيه..

وكان لا يفتأ يردد عبارته المأثورة:

«أريد رجلا إذا كان فى القوم، وليس أميرًا عليهم بدا وكأنه أميرهم.. وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير، بدا وكأنه واحد منهم».. !!

«أُريد واليًا، لا يميز نفسه على الناس فى ملبس، ولا فى مطعم، ولا فى مسكن...

«يقيم فيهم الصلاة... ويقسم بينهم بالحق... ويحكم فيهم بالعدل... ولا يغلق بابه دون حوائجهم»...

وفى ضوء هذه المعايير الصارمة، اختار ذات يوم «عمير بن سعد» واليًا على حمص..

وحاول «عمير» أن يخلُصَ منها وينجو، لكن أمير المؤمنين ألزمه بها إلزامًا ، وفرضها عليه فَرْضًا...

واستخار الله «عمير»، ومضى إلى واجبه وعمله...

وفى حمص، مضى عليه عام كامل، لم يصل إلى «المدينة» منه خراج...

بل ولم يبلغ أمير المؤمنين رضى الله عنه منه كتاب...

ونادى أمير المؤمنين كاتبه، وقال له:

«اكتب إلى عمير ليأتى إلينا»...

وهنا أستأذنكم فى أن أنقل صورة اللقاء بين عمر وعمير، كما هى فى كتابى «بين يَدَىْ عمر»[1].

(ذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلا أشعث أغبر، تغشاه وَعْثاء السفر، يكاد يقتلع خطاه من الأرض اقتلاعًا، من طول ما لاقى من عناء، وما بذل من جُهد...

على كَتِفه اليمنى جراب وقَصعة...

وعلى كتفه اليسرى قِرْبة صغيرة فيها ماء..!

وإنه ليتوكأ على عصًا، لا يَئُودها حمله الضامر الوهنان..!!

ودَلَفَ إلى مجلس «عمر» فى خُطًى وئيدة..

- السلام عليك يا أمير المؤمنين..

ويرد عمر السلام، ثم يسأله، وقد آلمه ما رآه عليه من جُهدٍ وإعياء:

- ما شأنك يا عمير..؟؟

---

(١) ظهر فى طبعته الأولى - فى يونيه عام ١٩٦١.

- شأنى ما ترى .. ألَسْتَ ترانى صحيح البدن، طاهر الدم، معى الدنيا أجُرُّها بقَرْنيها..؟؟!!

قال عمر :وما معك..؟؟!!

قال عمير :معى جرابى أحمل فيه زادى...
وقَصْعَتى آكل فيها.. وإداوتى أحمل فيها وضوئى وشرابى.. وعصَاى أتوكَّأ عليها، وأجاهد بها عَدُوًّا إن عَرَض.. فوالله ما الدنيا إلاَّ تَبَعٌ لمتاعى..!!

قال عمر :أجئت ماشيًا..

عمير :نعم..

عمر :أوَلم تجد من يعطيك دابة تركبها..؟

عمير :إنهم لم يفعلوا.. وإنى لم أسألهم..

عمر :فماذا عملت فيما عهدنا إليك به..؟

عمير :أتيتُ البلد الذى بعثتنى إليه، فجمعتُ صُلَحَاء أهله، وولَّيتهُم جِبابَة فَيْئهم وأموالهم، حتى إذا جمعوها وضعتها فى مواضعها.. ولو بقى لك منها شىء لأتيتُك به..!!

عمر :فما جئتنا بشىء..؟

عمير - لا...

فصاح عمر وهو مُنبهر سعيد:

- جدِّدوا لِعُمير عهدًا..

وأجابه عمير فى استغناء عظيم:

- تلك أيـام قد خَلَت.. لا عَمِلتُ لـك، ولا لأحـد بعدَك..!!

هذه الصورة ليست «سيناريو» نرسمه، وليست حوارًا نبتدعه..

إنما هى واقعة تـاريخية[1] شهـدتها ذات يـوم أرض المدينـة عاصمة الإسلام فى أيام خلده وعظمته.

فأى طراز من الرجال كان أولئك الأفذاذ الشّاهقون..؟!!

* * *

وكان عمر رضى الله عنه، يتمنى ويقول:

«وَدِدْت لو أن لى رجالا مثل عُمير أستعين بهم على أعمال المسلمين»..

(١) يروى هذه الواقعة كتاب «حلية الأولياء» حـ ١ وهو أحـد مراجعنـا التى أثبتناها فى صدور الكتاب.

ذلك أن «عميرًا» الذى وصفه أصحابه بحق بأنه «نسيج وحده» كان قد تفوق على كل ضعف إنسانى يُسببه وجودنا المادى، وحياتنا الشائكة..

ويوم كُتب على هذا القدِّيس العظيم أن يجتاز تجربة الولاية والحكم، لم يزدد ورعُه بها إلا مضاء ونماء وتألُّقًا..

ولقد رسم وهو أمير على حمص واجبات الحاكم المسلم فى كلمات طالما كان يصدح بها فى حشود المسلمين من فوق المنبر.

وها هى ذى:

«ألا إن الإسلام حائط مَنيع، وبابٌ وثيق
«فحائط الإسلام العدل.. وبابهُ الحق..
«فإذا نُقِضَ الحائط، وحُطِّم الباب، استُفْتِحَ الإسلام.
«ولا يزال الإسلام مَنيعًا ما اشتدَّ السلطان.
«وليست شدة السلطان قتلًا بالسيف، ولا ضربًا بالسوط..
«ولكن قَضاءً بالحق، وأخذًا بالعدل».. !!

والآن ، ونحن نُوَدِّع عميرًا.. ونُحييه فى إجلال وخشوع، تعالَوْا نَحْنِ رءوسنا وجباهَنا:

لخير المعلمين: محمد..

لإمام المتقين: محمد..

لرحمة الله المهداة إلى الناس قيْظ الحياة.

عليه من الله صلاته. وسلامه..

وتحياته، وبركاتُه..

وسلامٌ على آله الأطهار..

وسلامٌ على أصحابه الأبرار..